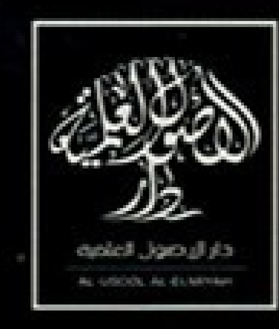
وَسَائِل دَفعِ البَلَاء عِندَ النَّوازِلِ وَالوَبَاء

الدكتور
شهاب البرزنجي



وسائلُ دفعِ البلاءِ
عندَ النَّوازلِ والوباء

د.شهاب البرزنجي

وسائلُ دفعِ البلاءِ
عندَ النَّوازِلِ والوباء

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

حينما ينزل بلاء من البلايا ويصيب الناس أفرادًا أو جماعات فلابد هنا من التوقف وإعادة النظر ومراجعة النفس، لاسيما في العلاقة مع الله عز وجل، فالبلايا والمصائب تتعدد أشكالها وطرقها، والخروج منها ليس التعلق بالأسباب، وإنما التعلق بربِّ الأسباب سبحانه...

إن البحث عن أسباب البلاء أمر واجب ومطلوب، ومعرفة السبب هو البداية فقط، ولكن الأهم من ذلك كيف نتعامل مع البلاء، وكيف ننظر إليه، وهل نمرُّ به مرورًا عابرًا إذا ما رُفع البلاء، وهل نُرجع الأمور إلى أنفسنا متناسين بأن الله قد كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة...

يقول تعالى: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [الحديد: 22].

(يقول تعالى ذكره: ما أصابكم أيها الناس من مصيبة في الأرض بجدوبها وقحوطها، وذهاب زرعها وفسادها، {وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ}، بالأوصاب والأوجاع والأسقام، {إلا فِي كِتَابٍ}، يعني: إلا في أمّ الكتاب، {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}، يقول: من قبل أن نبرأ الأنفس، يعني من قبل أن نخلقها)[1].

إنّ الأمّـة التي تتحصن بلباس التقوى والإيمان هي الأمة التي تستحق حفظ الله ورعايته، وتستحق عطاء الله وفضله، وتُرزق الخير والبركة والنماء مادامت على العهد والميثاق الذي واثقها الله بـه...

يقول تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف: 96].

(وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا}، أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، أي: قطْر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: {وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم)[2].

إنّ من يبحث عن السعادة والطمأنينة ويروم الهداية والأمان فليس أمامه إلا طريق واحد لا ثاني له، وهو طريق الله سبحانه، وأي طريق آخر، حتى وإن بدا ظاهره جميلًا ودربه سالكًا ومعبدًا، فإنه لن يفضي إلا إلى المجهول، ولن يجني سالكه سوى الحيرة والضياع والخسران.

يقول تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [الأنعام: 82]، (هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة)[3].

أما هذا الكتاب، الذي أسأل الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعني به أولًا، وأن ينفع به غيري، فإني اخترت موضوعه لأهميته، لاسيما في هذه الأوقات بعد أن كثرت البلايا على المسلمين والناس عامة، وكذلك تفشي الأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، فكان لابد من الحديث عن هذا الأمر، وماهي الوسائل التي يُدفع بها البلاء اعتمادًا على نصوص الشريعة من القرآن والسنَّة وأقوال سلفنا الصالح...

وحرصت على الاستدلال بالآية والحديث مستنيرًا بتفاسير القرآن المعتمدة، ومتحرّيًا صحة الأحاديث التي جاءت في الكتاب...

وختامًا...

إن ما جاء في هذا الكتاب من صواب فهو من الله وحده وله الفضل والمنّة، وما أخطأت فيه فمني ومن الشيطان، أسأل الله تعالى أن يتجاوز عني فيه...

وصلِّ اللهم على النبيّ الكريم محمد وعلى آله وصحبه وسلم...

د. شهاب البرزنجي

في التاسع عشر من رمضان 1441هـ.

الموافق 12/ 5/ 2020م.

وسائل دفع البلاء عند النوازل والوباء

اليقين وإحسان الظن بالله تعالى والصبر على البلاء.

اللجوء إلى الله تعالى والتضرع إليه.

ترك المعاصي والتوبة إلى الله تعالى.

الصلاة والذكر والاستغفار.

الدعاء وتحري مواطن الإجابة.

معرفة الله سبحانه في الرخاء.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

صنائع المعروف.

حسن التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب المشروعة.

الرقية الشرعية.

اليقين وإحسان الظن بالله تعالى
والصبر على البلاء

عند نزول البلاء، سواء أكان مرضًا، أو خوفًا، أو جوعًا، أو نقصًا في الأنفس والثمرات، فعلى المرء أن يتحلّى بالصبر على البلاء، ويعلم علمَ اليقين بأن الله تعالى لا يبتلي العباد ليعذبهم ما داموا مؤمنين به شاكرين لأنعمه، يقول تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء: 147].

وإنما يبتليهم ليختبرهم ويمتحن إيمانهم، يقول تعالى: {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: 1 - 2]، ويقول تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214].

ويبتليهم ليغدق عليهم بالحسنات جراء صبرهم على البلاء، يقول تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: 10]، ويبتليهم ليكفر عنهم سيئاتهم ويرفع من درجاتهم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«إن عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رَضِيَ فله الرِضا، ومن سَخِطَ فله السُّخْط»[4].

فعلى العبد أن يحسن الظن بالله بأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويوقن تمامًا بأن الله رحيم بعباده، رؤوف بهم، لطيف لما يشاء، لا يريد لهم سوى الخير، وفي الحديث القُدُسي: «إن الله تعالى يقول: أنا عند ظنِّ عبدي بي، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرّ»[5].

فمعاملة الله لعبده تدور مع الظن، فإذا أحسن ظنّه بربه بلَّغَه ما أمَّل...

جاء في «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»[6]:

(قوله: «أنا عند ظن عبدي بي»، يعني: إن ظنَّ أني أعفو عنه، وأغفر له فله ذلك، وإن ظنَّ العقوبة والمؤاخذة فكذلك).

ومن أجمل ما قيل في اليقين، ما يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: «اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله، ولا تحمد أحدًا على رزق الله، ولا تلم أحدًا على ما لم يؤتك الله، فإنَّ الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهة كاره... فإن الله تبارك وتعالى بقسطه وعلمه وحكمه، جعل الرَّوْح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمَّ والحَزن في الشك والسخط»[7].

ولقد أمر الله تعالى في مثل هذه الأحوال بالصبر والتصبّر، وأثنى على الصابرين في مواطن عدة في كتابه، يقول تعالى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: 186]، ويقول تعالى: {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: 90]، ويقول: {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 96].

وفي الحديث، يقول النبي ﷺ: «والصبر ضياء...»[8].

وأنواع الصبر ثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معاصي الله، وصبر على أقدار الله عز وجل...

وفي الحديث الذي سألت فيه أم المؤمنين رضي الله عنها عن الطاعون - وهو وباء معروف، ويشبهه الكثير من الأوبئة التي تنتشر في الناس، وتسبب الموت السريع - فإنَّ النبيَّ ﷺ ذكر أنَّ من الأسباب الموجبة للأجر: الصبر، والاحتساب، واليقين بأن العبد لا يصيبه إلا ما كتب الله له...

«عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُونِ، فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ»[9].

اللجوء إلى الله تعالى والتضرع إليه

عند وقوع البلايا ونزول المصائب فليس هنالك من باب سوى باب الله يلجأ إليه العباد، فلا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه، يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} [الأنعام: 42].

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ}، يعني: الفقر والضيق في العيش، {وَالضَّرَّاءِ}، وهي الأمراض والأسقام والآلام، {لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}، أي: يدعون الله، ويتضرعون إليه ويخشعون[10].

ويقول تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41].

(قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَرجِعُونَ}، يقول: كي ينيبوا إلى الحقِّ، ويرجعوا إلى التوبة، ويتركوا معاصي الله)[11].

إن من رحمة الله أنه لا يؤاخذ الناس بما يكافئهم من ذنوب ومعاصٍ، وما اجترحوه من آثام، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، يقول تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر: 45].

(ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل الأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق)[12].

إن العذاب ليس سوى باب يشرعه الله ليكون سببًا في ضراعتهم وإنابتهم ورجوعهم إليه سبحانه، ومن غير ذلك لن يرفع البلاء، وإن عاد الناس إلى سابق عهدهم بعد رفع البلاء فإنَّ سنَّة الله تقتضي عودة البلاء حتى يقلعوا عن المعاصي الموجبة لذلك العذاب.

وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، كيف إنهم حينما ابتلاهم الله بعذاب منه بسبب إعراضهم وغيّهم (كما في الآية التالية) فإنهم بدلًا من الاستجابة لنبي الله، أعرضوا واستكبروا وكانوا قومًا مجرمين، وفي كل مرة يقولون لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنَّا ما نحن فيه، لينكثوا العهد، مصرِّين على غيِّهم وعتوِّهم، فيزيدهم الله عذابًا إلى عذابهم.

يقول تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ} [الأعراف: 133].

وعندما يلجأ العبد إلى الله في سرَّائه وضرائه، إنما هو إقرار بأنَّ الله وحده هو القادر على كشف الضرِّ وجلب النفع، وهذا هو التوحيد الذي أمر الله به عباده، وجاء على ألسِنة الرسل عليهم السلام، دعاء، واستغاثة، واستجارة، واستعانة، وتوكل عليه سبحانه...

يقول تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير} [الأنعام: 17].

(هو القادر على نفعك وضرِّك، وهو على كل شيء يريده قادر، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالآلهة الذليلة المَهينة التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها، يقول تعالى ذكره: فكيف تعبد من كان هكذا، أم كيف لا تخلص العباد وتقرُّ لمن كان بيده الضر والنفع، والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة، والعزّة الظاهرة)[13].

فما من شيءٍ في هذا الكون إلا ويجري بأمره ويمضي بإرادته وتحت مشيئته سبحانه، فهو خالق كل شيءٍ، ومدبّر كل شيء، والقادر على كل شيءٍ، يقول تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُون} [البقرة: 117].

ولن تتحقق النجاة في الدنيا والآخرة إلا إذا سلك الناسُ طريقَ الإيمان، وفرُّوا من عقاب الله إلى رحمته، ولن يفوزوا برحمته حتى يتبعوا أمره ويعملوا بطاعته.

يقول الله تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الذاريات: 50].

ترك المعاصي والتوبة إلى الله تعالى

إن من أعظم أسباب نزول البلاء، كثرة المعاصي والذنوب، كما أنَّ من أعظم أسباب رفع البلاء هو لزوم التقوى والتوبة إلى الله والإنابة إليه...

يقول تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41].

وقال أبو العالية[14]: (من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: «لَحَدّ يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا». والسبب في هذا أنَّ الحدود إذا أقيمت، انكفَّ الناس - أو أكثرهم، أو كثير منهم - عن تعاطي المحرمات، وإذا ارتكبت المعاصي كان سببًا في محاق البركات من السماء والأرض)[15].

(وقوله: {لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات؛ اختبارًا منه، ومجازاة على صنيعهم، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: {وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون} [الأعراف: 168])[16].

إن شيوع المعاصي والمجاهرة بها لَسببٌ موجبٌ لنزول العذاب بأنواعه... وما أصاب الأمم السابقة من أنواع عذاب ليس إلا بسبب كفرهم وإعراضهم وإمعانهم بالخطيئة ومجاهرتهم بها.

يقول تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت: 40].

فمنهم من أرسل الله عليهم حاصبًا، وهم قوم لُوط الذين أمطر الله عليهم حجارةً من سجّيلٍ مَنضُود، والعرب تسمِّي الريحَ العاصف التي فيها الحصى الصغار، أو الثلج، أو البرد والجليد حاصبًا، ومنهم من أخذته الصيحة، وهم ثمودُ قوم صالح، وقيل أيضًا: مدين قوم شعيب، ومنهم من خُسِف به الأرض، وهو قارون، ومنهم من أُغرِقوا، وهم قوم نوح وقوم فرعون.

يقول النبيُّ ﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قومٍ قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مَضوا»[17].

تقوى الله:

فمن أراد الخروج من البلاء فعليه بتقوى الله، ولزوم طاعته، والإقلاع عن المعاصي، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران : 102].

قال أبو جعفر[18]:

(يعني بذلك جلَّ ثناؤه: يا معشر من صدَّق الله ورسوله اتقوا الله، خافوا الله ورَاقبوه بطاعته واجتنابِ معاصيه حقَّ تُقاته، حقّ خوفه، وهو أن يُطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا يُنسى، ولا تموتن أيها المؤمنون بالله ورسوله إلا وأنتم مسلمون لربكم، مُذعنون له بالطاعة، مخلصون له الألوهيةَ والعبادة)[19].

وقال طلق بن حبيب رحمه الله[20]:

(التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله).

ويقول تعالى: {وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق : 3].

وقال الربيع بن خثيم[21]:

(يجعل له مخرجًا من كل شيء ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجًا من كل شدة. وقال الحسن: مخرجًا عمَّا نهاه عنه)[22].

(عن ابن عباس، قوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}، يقول: نجاته من كل كرب في الدنيا والآخرة)[23].

قال قتادة[24]: (من يتق الله يكن الله معه، ومن يكنِ الله معه، فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل)[25].

الصلاة والذكر والاستغفار

أما الصلاة فالمقصود الصلاة المعروفة من الفريضة والتطوع والنوافل، فالصلاة هي صلة العبد بربه، وتعدُّ من أعظم أسباب دفع البلاء، وإدخال الطمأنينة إلى النفس، والسكينة إلى القلب؛ لما فيها من ذكرٍ لله، وقراءةٍ للقرآن، ودعاءٍ ومناجاة.

يقول الله تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة : 45].

عن حذيفة رضي الله عنه: «أن الرسول ﷺ كان إذا حَزَبَه أمرٌ فزَع إلى الصلاة»[26].

ويروى عنه أيضًا: «رجعت إلى النبي ﷺ ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حَزَبه أمرٌ صلّى»[27].

قال رسول الله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة...» الحديث[28].

قال ابن حجر[29]:

(ومن كانت قرة عينه في شيء، فإنه يَودُّ أن لا يفارقه ولا يخرج منه؛ لأن فيه نعيمه، وبه تطيب حياته، وإنما يحصل ذلك للعابد بالمصابرة على النَصَب)[30].

ويقول تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُون} [المعارج: 19 - 23].

(هلوعًا أي: حريصًا بخيلًا منوعًا للخير، جزوعًا أي: إذا أصابه الضرُّ فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير)[31].

إن الذي يحفظ الإنسان من أن يكون هلوعًا جزوعًا هو أن يتصف بجملة صفات وردت في السورة المذكورة، وأولها صفة الصلاة.

وأما الذكر: فإنه من أسباب جلب الطمأنينة للقلب، لاسيما وقت الشدة والفتنة والبلاء، حيث يكون العبد بأمس الحاجة إلى السكينة وهدوء البال وراحة النفس.

والنفس المؤمنة لا تجد مثل سعادة الذكر، ولا سبيلَ لذهاب الوحشة إلا بالقرب من الله، والاستئناس بذكره سبحانه، يقول الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد : 28].

ولقد أثنى الله على أهل الذكر بقوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب : 35].

ومن الأذكار المهمة التي يدفع بها الضر هو ما روي عَن خَوْلَةَ بِنْت الحَكِيمِ، قالت: سمعت رَسُولِ الله ﷺ، يقَولَ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فقَالَ: أَعُوذُ بِكلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرُّهُ شيءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»[32].

ومن أنفع ما ينتفع به العبد هو المحافظة على أذكار الصباح والمساء، وهي من أعظم الأسباب التي يدفع بها البلاء والأمراض وغيرها.

وعن أبان بن عثمان، قال: سمعت عثمان بن عفان، يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم ثلاث مرات فيضره شيء». وكان أبان قد أصابه طرف فالج فجعل الرجل ينظر إليه، فقال له أبان: ما تنظر؟ أما إن الحديثَ كما حدثتُك، ولكني لم أقلْه يومئذٍ ليمضي الله عليَّ قدَره[33].

وقراءة آية الكرسي بعد الصلاة:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ»[34].

(وَبَلَغَنِي عَنْ شَيْخِنَا أبي العباس ابن تيمية قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ، أَنَّهُ قَالَ: مَا تَرَكْتُهَا عَقِيبَ كُلِّ صَلَاةٍ)[35]. انتهى.

وسورة الإخلاص والمعوذتان عقب كل صلاة، وعند النوم:

عن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قُل. قلت يا رسول الله ما أقول؟ قال: قل هو الله أحد، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»[36].

ومن السُّنَّة أيضًا قراءة السور الثلاث دبر الصلوات مرة واحدة، فعن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة»[37].

قال النووي: وفي رواية أبي داود «بالمعوذات»، فينبغي أن يقرأ {قل هو الله} أحد مع المعوذتين.

وقراءة الآيتين من آخر سورة البقرة كل ليلة.

عَنْ أبي مسعود البدري رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[38].

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلاَ يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلاَثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ»[39].

وهنالك الكثير من الأذكار المأثورة عن النبي ﷺ يمكن الرجوع إليها.

ومن تلك الوسائل **الاستغفار**.

ومن أعظم أسباب دفع البلاء وجلب الأمان هو الاستغفار، يقول تعالى: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال : 33].

(قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبيٌّ الله، والاستغفار. قـال: فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار)[40].

وبالاستغفار المقترن بالعمل الصالح والتوبة الصدوق يمنُّ الله على من يشاء من عباده من القوة والشدةَ والمَنعَة يقول تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود : 52].

بلزوم الاستغفار تُفرج الهموم، وتَزول الغُموم، ويجعل اللهُ من كل ضيقٍ مخرجًا:

عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضِي الله عنْهُما، قَال: قـالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «منْ لَزِم الاسْتِغْفَار، جَعَلَ اللَّه لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مخْرجًا، ومنْ كُلِّ هَمٍّ فَرجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ»[41]. والمقصود هو ما اقترن بالتوبة والندم والإنابة إلى الله.

ومن تلك الوسائل أيضًا **الإكثار من الصلاة** على النبي ﷺ.

أخرج الترمذي، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس: اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه. قال أبي: قلت: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: ما شئت. قال: قلت: الربع؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك. قلت: النصف؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك. قال: قلت: فالثلثين؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك. قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: إذن تكفى همك، ويغفر ذنبك».

وفي رواية: «إذًا يكفيَك الله تبارك وتعالى ما أهمَّك من دنياك وآخرتك»[42].

الدعاء وتحرّي مواطن الإجابة

عند نزول البلايا وتفاقم الهموم، الذي ينبغي على العبد هو أن يظهر فاقته وحاجته إلى الله، وأن يبدي انكساره بين يديه، داعيًا ومتوسلًا وطالبًا حاجته من عنده سبحانه، لا من سواه، مستخلصًا عبودية قلبه له وحده سبحانه، متجردًا من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، مفتقرًا إليه، طارقًا بابه، يرجو القبول والرضا والإجابة، يدعوه وهو موقن بالإجابة.

والدعاء دليل خضوع العبد، وذلِّه لربه، وتعلقه به سبحانه، فهو عزَّ وجلَّ مَن يكشف الضر، وهومن يرفع البلاء، يقول تعالى: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: 62].

ويقول تعالى: {وإذا مَسّكمُ الضُّرُ في البَحر ضَلَّ مَّنْ تَدعُونَ إلّا إيّاه} [الإسراء: 67].

(أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضُر المضرورين سواه)[43].

ويقول تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: 186].

(يعني تعالى ذكره بذلك: وإذا سَألك يا محمد عبادي عَني: أين أنا؟ فإني قريبٌ منهم أسمع دُعاءهم، وأجيب دعوة الداعي منهم)[44].

ويقول تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: 60].

(وقوله: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، يقول تعالى ذكره: ويقول ربكم أيها الناس لكم: {ادْعُونِي}، يقول: اعبدوني وأخلصوا لي العبادة دون من تعبدون من دوني من الأوثان والأصنام وغير ذلك {أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، يقول: أُجِبْ دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم)[45].

والله تعالى يحب أن يُسأل؛ لأنه الرحمنُ الرحيمُ، البَرُّ الكريم، اللطيف الودود، ويغضب إذا لم يسأل، يقول النبي ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[46].

إن دعاء الله والطلب منه تعالى من أفضل العبادات، كما يقول النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}»[47].

ومن أسباب قبول الدعاء، التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، والتوسل إليه سبحانه بالأعمال الصالحة، كما في حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار، وكذلك التوسل بدعاء الصالحين الأحياء.

ويُسَنُّ الدعاء بالأدعية المأثورة عن النبي ﷺ، وتحرّي مواطن الإجابة عند السحر، ودبر الصلوات المكتوبة، وفي السجود، وبين الأذان والإقامة، وآخر ساعة من يوم الجمعة، وعند فطر الصائم، وعند نزول الغيث، وفي السفر، وغيرها.

ومن الأدعية المأثورة عند وقوع البلاء والشدائد، دعاء سيدنا يونس عليه السلام، وهو في بطن الحوت، يقول تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء: 87 - 88].

قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ، إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، إِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ بِهَا»[48].

ودعاء الكرب الذي علمنا إياه نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَلِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»[49].

معرفة الله سبحانه في الرخاء

يقول النبي ﷺ: «تَعرّفْ إلى الله في الرَخاء يَعرفْك في الشِدّة». معرفةُ العبد لربه نوعان:

أحدهما: معرفة عامة.

وهي معرفة الإقرار والتصديق والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة.

تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية، والانقطاع إليه، والأنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المحبة التي يدور حولها العارفون[50].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا، فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلماتٍ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفَّت الصحف»[51].

وفي رواية أحمد: «احفظ الله تجده أمامك، تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يُسرًا».

(أي: احفظ حدوده، وحقوقه، وأوامره، ونواهيه، والجزاء من جنس العمل، فإن الله يحفظك في نفسك، وأهلك، ومالك، وحفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه، فيتوفاه على الإيمان)[52].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

(يعني أن العبد إذا اتقى الله، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك على الله، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة، فعرفه ربه في الشدة، ورعى له تعرفه إليه في الرخاء، فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة)[53].

ومِن أعظم المعارف أن يتعرف العبد على ربه سبحانه، فيُعْمِل فِكرَه في عظيم قدرته، وآيات خلقه، ودلائل وجوده، ويتعرف على سابغ نعمه، وسعة فضله وجوده وكرمه، فيتقرب إلى الله بالشكر، والطاعة، والانقياد، ويجعل مرضاته والفوز بمحبته غاية أمنياته في الدنيا، فإذا نزل البلاء وحلَّ القضاء عرفه الله في شدته، فهذا نبي الله يونس عرف الله في رخائه فأنجاه الله في محنته، {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: 143].

يعني لولا تسبيحه لنا، وكثرة ذكره ودعائه وطاعته في زمن رخائه، لما أنجيناه في زمن شدته وبلائه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن يستجيبَ الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء في الرخاء»[54].

قال رجل لأبي الدرداء: أوصني، قال له: اذكر الله في السراء يذكرك الله عز وجل في الضراء، وقال: ادع الله في يوم سرائك، لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك.

وقال الضحاك بن يونس: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة.

لما هرب الحسن البصري[55] من الحجاج دخل بيت حبيب أبي محمد، فقال حبيب: يا أبا سعيد أليس بينك وبين ربك ما تدعوه فيسترك من هؤلاء؟ ادخل البيب. فدخل. ودخل وراءه الشُّرَط على أثره، فلم يروه، فذكر ذلك للحجاج، فقال: بل كان في البيت، إلا أن الله طمس أعينهم فلم يروه[56].

وقد ذمَّ الله أقوامًا لا يعرفونه ولا يدعونه إلا حال الشدائد وحلول المصائب، فإذا نجاهم منها وعافاهم وسلمهم نسوه وأعرضوا عنه، كأن لم تكن بهم شدة ولا بأس. يقول الله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كأن لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون} [يونس: 12].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومن وسائل دفع البلاء هو القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك سواء في السراء أو في الضراء، وفي المنشط أو في المكره، وهذا الأمر لازم لخيرية هذه الأمة التي وصفها الله بقوله سبحانه: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

وقال ابن كثير في «تفسيره»:

(يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، فقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام».

وهكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعطية العوفي، وعكرمة، وعطاء، والربيع بن أنس، {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، يعني: خير الناس للناس، والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس، ولهذا قال {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح.

كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها، رأى من الناس سرعة، فقرأ هذه الآية {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، ثم قال: «من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله فيها»... ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ} [المائدة: 79] الآية، ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات، وشرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ})[57].

وروي عن عمر رضي الله عنه، أنه قال في معرض ذكره للصحابة الذين اتصفوا بهذه الخيرية: (افعلوا فعلهم تكونوا مثلهم).

وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: 104]: (في الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت في الكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها)[58].

عن درة بنت أبي لهب، قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ فقال: «خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم»[59].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات أهل الإيمان، كما وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 71].

والذي يقوم بهذه المهمة الجليلة، ويتسنم مسؤوليتها، فإنه ينبغي عليه أن يتصف بأوصاف تؤهله للنجاح في مهمته، حتى يكون أمْرُه بالمعروف معروفًا ونَهيُه عن المنكر ليس منكرًا.

ومن جميل ما ذكر في هذا الباب عن سفيان الثوري رحمه الله[60]:

(لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى، عدل بما أمر عدل بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى)[61].

والأدلة في فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة، ولكن ينبغي هنا أن نبين بأن غياب هذه الصفة عن الأمة هو ذهاب لخيريتها، وإيذان بأفول نجمها بين الأمم، وتسلط عدوها عليها، وحلول العذاب فيها.

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها، أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه. وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها. قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخَبث»[62].

والخبث لا يكثر في أي مجتمع من المجتمعات إلا إذا قلَّ فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا تخلى الدعاة عن مهمتهم في إصلاح تلك المجتمعات، وتراجعوا عن السعي لنشر الخير فيها، فيعم الفساد، وتسوء الأخلاق، وتنتكس الفِطَر، ويسود الظلم، ويتجرأ أهل الباطل، ويُجاهر بالمعاصي، فحينئذٍ يحل فيها غضب الرب سبحانه، وينزل فيها عذابه.

يقول تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: 117].

من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها {عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم}، قال: وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يَعمَّهم بعقاب»)[63].

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «ما مِن قومٍ يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيِّروا فلا يغيِّروا، إلا يوشك أن يَعمَّهم الله بعقاب»[64].

وقصَّ الله تعالى علينا قصَّة أصحاب السبْت في كتابه العزيز، فقال:

{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [الأعراف: 163 - 166].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا أثلاثًا: ثلث نَهوا، وثلث قالوا: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ}، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نَهوا وهلك سائرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(أَنْجَى اللهُ النَّاهِينَ. وَأَمَّا أُولَئِكَ الْكَارِهُونَ لِلذَّنْبِ الَّذِينَ قَالُوا: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا}، فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُمْ نَجَوْا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَارِهِينَ فَأَنْكَرُوا بِحَسَبِ قُدْرَتِهِمْ)[65].

وهكذا سنَّة الله في عباده، أنَّ العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والنَّاهون عن المنكر.

عن عمر بن عبد العزيز، قال: (إنَّ الله تبارك وتعالى لا يُعذب العامَّة بذنب الخاصَّة، ولكن إذا عُمِل المنكر جهارًا استحقوا العقوبة كلُهم)[66].

صنائع المعروف

يقول النبي ﷺ فيما رواه عنه أبو أُمامة: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب»[67].

يقول تعالى: {يا أيّها الذين آمنُوا ارْكعُوا واسْجدُوا واعبدُوا ربَكم وافعلُوا الخيرَ لعلّكم تُفلِحون} [الحج: 77].

إنَّ صنائع المعروف وفعل الخيرات لها أثر بالغ في دفع البلايا، وتفريج الكربات، وتيسير الشدائد والملمات، وهذا الأمر يكون على مدار الأحوال والأوقات، أيام الرخاء واليسر والدَعة قبل نزول البلاء، وكذلك عند نزول البلاء حيث يكون العبد بأمسِّ الحاجة إلى اللجوء إلى ربه سبحانه، والتقرب إليه بالعمل الصالح والقربات.

سُبُل الخير وطرائق المعروف:

سبل الخير وطرائق المعروف كثيرة، وليست مقصورة على الإنفاق في سبيل الله، فهنالك الكثير من أبواب الخير يَسْهل على العبد طَرقُها، وكلٌ بحسْبِه وعلى قدْر سَعته...

فهنيئًا لمن استطاع أن يكون له في كل باب سهم، وهنيئًا لمن اعتاد فعل الخير في منشطه ومكرهه، ورخائه وشدته، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا...

إنَّ إنفاق المال وجه من أوجه تلك الصنائع، وقضاء حوائج الناس من تلك الصنائع، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وبذل الجاه والشفاعة في الخير، والتيسير على المعسر، وتعليم الجاهل، وتنبيه الغافل، وتبصير الحائر، وغيرها الكثير من أوجه الخير التي لا تُحصى، هي أبواب للولوج منها إلى مرضات الله، والخروج من البلايا والمصائب والفتن.

شروط قبول العمل:

كم من البلايا والمصائب زالت واضمحلت بفعل أعمال الخير، سواء في السرِّ أو في العلَن، شريطة أن يُبتغى بها وجه الله، بعيدًا عن السمعة والرياء وطلب الشهرة.

إنَّ الله سبحانه وتعالى مطّلع على قلوب عباده، وأعلم بنياتهم وما يدور في خَلَدهم ويجُول في صدورهم، وهو القائل سبحانه: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 14].

وأي عمل يقوم به العبد بين يدي الله صغيرًا كان أم كبيرًا فالله به عليم.

يقول تعالى: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ} [البقرة: 215].

وكل الأعمال صغيرها وكبيرها جميعًا في ميزان العبد يوم القيامة، خيرًا كانت أم شرًّا.

{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: 7 - 8].

ولن يكون العمل متقبلًا حتى يتوفر فيه شرطان:

الإخلاص، واتباع السنَّة، ولا يقبل الله عملًا إلا إذا اجتمعا فيه، فأي عمل لا يتوفر فيه هذان الشرطان فهو حابط لا محالة، ولا يقبله الله ما لم يُبتغى به وجه الخالق سبحانه، وما لم يكن موافقًا سنّة المصطفى عليه الصلاة والسلام...

فمثل هذ النوع من العمل الذي تَخلُص فيه النيات، ويُقتفى به أثر الرسول ﷺ، يُدرأ به البلاء، وتُجتنب به الفتن، وتُدفع به الكروب.

يقول النبي ﷺ: «كلُّ معروفٍ صَدقة»[68].

عن ابن عمر، أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله أيُّ الناس أَحَبُّ إلى الله، وأيُّ الأعمال أَحَبُّ إلى الله، فقال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الناس إلى الله عزَّ وجلَّ أنفعُهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله سرورٌ تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دَيْنًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخٍ لي في حاجة أَحَبُّ إليّ مِن أنْ أعتكف في هذا المسجد شهرًا [مسجد المدينة]، ومن كفَّ غضَبه ستَرَ اللهُ عورته، ومن كظم غضَبه، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله

قلبه رخاءً يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له ثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام»[69].

شواهد من الكتاب والسنة:

يقول تعالى في قصة يونس عليه السلام: {فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون} [الصافات: 143 - 144].

عن قتادة: {فلولا أنه كان من المسبحين}، كان كثير الصلاة في الرخاء، فنجاه الله بذلك، قال: وقد كان يقال في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عثر فإذا هذا يونس بن متَّى نبي الله يسقط في البحر فيبتلعه الحوت، في ظلمات ثلاث، فهو في ظلمة جوف الحوت، وظلمة جوف البحر، وفي ظلمة الليل، فلا أحد يعلم مكانه، ولا أحد يسمع صوته ونداءه إلا الله الذي لا تخفى عليه خافية، {فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين}.

قال تعالى: {فلولا أنه كان من المسبحين}، أي حال رخائه وقبل بلائه، {للبث في بطنه إلى يوم يبعثون * فنبذناه بالعراء وهو سقيم * وأنبتنا عليه شجرة من يقطين * وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون} [الصافات: 143 - 147].

وهنا يستوقفنا قول ربنا عزَّ وجلّ في سورة الأنبياء لنفس القصة، إذ يقول ربنا عزّ وجلّ: {وكذلك نُنجي المؤمنين}، لنتذكر دائمًا بأن هذا الأمر ماضٍ في المؤمنين حتى تقوم الساعة، فمن يأخذ بأسباب النجاة كان حقًّا على الله أن يستجيب له وينجيه من غمه وبلائه وهو أرحم الراحمين.

وفي «تفسير ابن كثير»:

(أن يونس النبي، ﷺ، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين. فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش. فقالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا يا رب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قال: نعم. قالوا: يا رب، أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء).

وفي الحديث القدسي يقول رب العزة: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[70].

فمن اعتاد الطاعات، وأعمال الخير، من عبادات في وقت رخائه، فإنه لن يعدم دعوةً مستجابة، ولا عونًا من الله تعالى، وإعاذةً، وإحاطةً، ونصرًا من الله العظيم.

وعن أبي جريٍّ الهجيميّ، قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إنَّا قوم من أهل البادية، فعلِّمنا شيئًا ينفعنا الله تبارك وتعالى به، قال: «لا تحقرنَّ من المعروفِ شيئًا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تكلِّم أخاك ووجهك إليه منبسط»[71].

وقصة الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة، فأغلقت عليهم الباب، فدعوا ربهم بسالف صالح الأعمال، فمازال يفرجها عليهم شيئًا فشيئًا حتى نجاهم، وخرجوا يمشون.

حسن التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب المشروعة

عند وقوع البلاء أو نزول العذاب، فإن الذي ينبغي فعله، كما ذكرنا آنفًا، هو حسن الظنّ بالله، وحسن التوكل عليه، واللجوء والتضرع إليه سبحانه، والانكسار بين يديه، والتذلل عند بابه، والإكثار من ذكره، ودعائه سبحانه.

وينبغي هنا التذكر بأهمية الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب، وهذا أمر قد يخطئ فيه البعض في فهمهم لمعنى التوكل.

وقد جعل الله التوكل شرطًا في صحة الإيمان، فقال سبحانه: {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [المائدة: 23]، وجعله كذلك دليل صحة الإسلام، فقال سبحانه: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} [يونس: 84]، وكلما قَوِيَ إيمان العبد قَوِيَ توكلُه، وإذا ضعف الإيمان كان التوكل ضعيفًا.

حقيقة التوكل:

(وحقيقة التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة [توكيل] الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأن لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه...

واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به)[72]**.**

وقد يختلف الناس في سبب توكلهم ومرادهم، فالبعض قد يقصد بتوكله جلب المنافع الدنيوية أو دفع مضارِّها، والبعض يرتقي بمعنى التوكل للفوز بمحبةّ الله وما عنده من فضل وثواب، وذلك بالأخذ بأسباب الهداية واليقين والعمل لله سبحانه، ومن عمل بالثانية كفاه الله الأولى.

يقول ابن القيم رحمه الله: (قَاعِدَة التَّوَكُّل على الله نَوْعَانِ:

أَحدهمَا: توكل عَلَيْهِ فِي جلب حوائج العَبْد وحظوظه الدُّنْيَوِيَّة، أَو دفع مكروهاته ومصائبه الدُّنْيَوِيَّة.

وَالثَّانِي: التَّوَكُّل عَلَيْهِ فِي حُصُول مَا يُحِبهُ هُوَ ويرضاه من الْإِيمَان، وَالْيَقِين، وَالْجهَاد، والدعوة إِلَيْهِ...

وَبَين النَّوْعَيْنِ من الفضل مَا لَا يُحْصِيه إِلَّا الله، فَمَتَى توكل عَلَيْهِ العَبْد فِي النَّوْع الثَّانِي حق توكُّله كَفاهُ النَّوْع الأول تَمام الْكِفَايَة، وَمَتى توكل عَلَيْهِ فِي النَّوْع الأول دون الثَّانِي كَفاهُ أَيْضًا، لَكِن لَا يكون لَهُ عَاقِبَة المتَوَكل عَلَيْهِ فِيمَا يُحِبهُ ويرضاه، فأعظم التَّوَكُّل عَلَيْهِ التَّوَكُّل فِي الْهِدَايَة، وَتَجْرِيد التَّوْحِيد، ومتابعة الرَّسُول، وَجِهَاد أهل الْبَاطِل، فَهَذَا توكل الرُّسُل وخاصة أتباعهم)[73].

التداوي من الأمراض والأخذ بأسباب الوقاية

إن التداوي من الأمراض لا ينافي التوكل، بل إنه من الدين الذي أوجب على الإنسان حفظ نفسه من المهالك، يقول تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} الآية [البقرة: 195].

وحفظ النفس من الضروريات الخمسة التي أمر بها الإسلام، وهي: (الدِّين، والنَّفس، والمال، والعِرض، والعقل).

عن أسامة بن شريك: شَهدتُ الأعرابَ يسألونَ النَّبيَّ ﷺ، أعلينا حرجٌ في كذا، أعلَينا حرجٌ في كذا، فقالَ لَهم: «عبادَ اللهِ، وضعَ اللهُ الحرجَ إلَّا منِ اقترضَ من عرضِ أخيهِ شيئًا، فذاكَ الذي حُرِجَ. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، هل علينا جناحٌ أن لا نتداوى؟ قالَ: تداوَوا عبادَ اللهِ، فإنَّ اللهَ سبحانَهُ لم يضع داءً إلَّا وضعَ معَهُ شفاءً إلَّا الْهرمَ. قالوا: يا رسولَ اللهِ، ما خيرُ ما أعطِيَ العبدُ؟ قالَ: خُلُقٌ حسنٌ»[74].

وعند الوباء وتفشي الأمراض، علَّمنا رسولُ الله ﷺ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى، ما الذي ينبغي فعله:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَهَا: «أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُونِ، فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ»[75].

عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»[76].

والطاعون: قيل: إنه وباء معيّن، وقيل: إنه كل وباء عام يحل بالأرض فيصيب أهلها ويموت الناس منه، وكما في الحديث آنف الذكر فإنه عذاب يبعثه الله على من يشاء، ولكنه رحمة للمؤمن الذي إن مكث في بلده صابرًا محتسبًا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد.

الرُقية الشرعية

وهي من الأسباب العظيمة التي يُدفع بها المرض والعين والسحر.

ولقد اشترط أهل العلم شروطًا للرقية الشرعية، منها:

1 - أن تكون بكلام الله، أو بأسمائه وصفاته، أو المأثور عن النبي ﷺ.

2 - أن تكون الرقية باللغة العربية، أو بما يفهم معناها من غيرها.

3 - أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى.

فإذا كانت هذه الشروط الثلاثة مجتمعة في الرقية فهي الرقية الشرعية، وقد قال ﷺ: «لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركًا»[77].

أمثلة على بعض الرقى الواردة في الكتاب والسنة:

سورة الفاتحة من أنفع ما يقرأ على المريض، لما فيها من معانٍ جليلة تضمنتها هذه السورة العظيمة من توحيد الله وإخلاص العبادة له سبحانه، ودعائه والثناء عليه عزوجل، والاستعانة به وسؤاله الهداية، وغيرها من الفوائد الجمَّة التي تضمنتها هذه السورة التي سمّاها الله تعالى بالسبع المثاني، وسمَّاها رسول الله ﷺ بأمِّ الكتاب.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، «أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ رقى لديغًا بفاتحة الكتاب، فجعل يتفل عليها ويقرأ {الحمد لله رب العالمين}، فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قَلبة» الحديث[78].

القَلبة: بفتح القاف، العلَّة والألم.

عند رقية المريض يقول: «بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، ومن شرِّ كل نفسٍ أو عين حاسدٍ الله يشفيك، بسم الله أرقيك»[79].

وإذا اشتكى وجعًا في جسده يضع يده على موضع الألم، ويقول:

(بسم الله «ثلاثًا»، ويقول «سبع مرات»: أعوذ بعزَّة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر).

عن عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه، أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل: بسم الله - ثلاثًا - وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[80].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان شيئًا، أو كانت قرحة به أو جرح قال النبي ﷺ بأصبعه هكذا، ووضع سفيان بن عيينة أصبعه على الأرض، ثم رفعها، وقال: «بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يشفى سقيمنا، بإذن ربنا»[81].

وعنها رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان يعوِّذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول: «اللهم ربَّ الناس، أذهبِ البأسَ، واشفِ أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا»[82].

وفي السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «من عاد مريضًا لم يحضر أجله فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يشفيك، إلا عافاه اللهُ تعالى».

وقد تكون الإصابة من العين، فقد قال ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»[83].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أمرني النبي ﷺ، أو أمر النبي ﷺ أن نسترقي من العين»[84].

وإذا عُرف العائنُ، فيُؤمرُ بأن يفعل ما أمر به النبي ﷺ، وذلك أنَّ عامر بن ربيعة رأى سهل بنَ حنيف يغتسل، فقال: والله ما رأيتُ كاليومِ، ولا جِلد مُخَبَّأة: قال: فلبط سهل. فأتى رسول الله ﷺ عامرًا، فتغيظ عليه، وقال: «علام يقتل أحدكم أخاه؟ ألا برَّكت. اغتسل له». فغسل عامر وجهه،

ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره في قدح، ثم صب عليه، فراح سهل مع الناس ليس به بأس»[85].

خاتمة

بعد أن بيّنّا بعضًا من أهم وسائل دفع البلاء، وكيفية الأخذ بالأسباب المشروعة لذلك، كان لابد من وقفة أخيرة لنتذكر أمرًا مهما، وهو:

لا ينبغي للعبد بعد مرور البلاء، وانكشاف ضرّه، وتحمل شدة وقْعه، وتجرّع مرارة الصبر عليه، أن يعود إلى ما كان عليه قبل البلاء، من تضييع، وتفريط، وانشغال بالدنيا، والتعلق بها! فإنَّ ذلك يدل على عدم الاتعاظ وأخذ ما جرى بعين الاعتبار، وعدم إدراك أسباب البلاء وموجبات وقوعه، وما ينبغي أن يكون عليه بعده.

أفَرَجٌ بعد شدة، ويُسرٌ بعد عُسْر، ثم يُرجع إلى المعاصي، ويُترك الشكر!

أبعد طول الصبر، وشدة الالتجاء، والإكثار من الدعاء، يَنسى العبد أو يتناسى ما كان عليه، وكأنَّ شيئًا لم يكن؟! يقول تعالى:

{وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [يونس: 12].

فالمؤمن كيِّسٌ فَطِن، وقَّافٌ عند الحق، كثيرُ العِظة والاعتبار، يُحاسِب نفسَه ويراجعها على الدوام، ولا يرضى أن تمُر به الأحوال غير آبهٍ أو مكترثٍ بها، وإذا ما ابتلي فإنه يَخرج من البلاء أصلب عودًا، وأقوى إيمانًا، وأعلى همّةً، وأكثر إقبالًا على العبادة، وأشد تمسكًا بدينه، وأقرب إلى الله.

أما العاجز الذي يُتبع نفسَه هواها، ويتمنى على الله الأمانيَّ، فإنه لا يقدر على تحمل البلاء حتى وإن كان يسيرًا، لا يصبر على معاناة، ولا يقوى على شدة، كثير التذمر جَزِعًا، مُمعن في

الشكوى متضجرًا، بل وربما يائسًا وقنوطًا، غافلًا عن سُنَّة من سُنن الله في خلقه، وذلك أنَّ الله يُملي للعبد ويمدُّ له حتى إذا لم يبق له عذرٌ، أو تقوم له حجة أنزل به سخطه وأحل به عذابه.

وشتّان بينه وبين المؤمن الذي ينظر إلى البلاء على أنَّه محض اختبار، إن صبر واسترجع، يزيد الله به حسناته، ويكفِّر له سيئاته، ويرفع عنده درجاته، ويوفيه أجْرَ صبْره بغير حساب.

وختامًا...

فإنَّه لابد للعبد من الاستعداد لأيِّ بلاء إذا ما نزل غير متمنٍّ أو طالبٍ له، مع الأخذ بأسباب دفعه، وهذا الاستعداد لا يتحقق من غير يقينٍ راسخٍ في الصدر، وإيمانٍ يُصدِّقه العمل، وسلامةِ قلبٍ خالٍ من الشهوات، ومتجردٍ من الشبهات، واستحضارٍ لحقيقة أن الدنيا دارُ عمل واختبار، والآخرةَ دارُ حسابٍ وقرار.

اللهمّ ارحم المسلمين رحمةً عامَّة، وارفع عنهم البلاء والوباء وسائر الأسقام يا رب العالمين، اللهم تُب على تائبهم، واغفر لمسيئهم، واجعل البلايا والمحن رحمةً لهم لا عذابًا، وسببًا للرجوع إليك، والإنابة إلى بابك، إنك وليُّ ذلك، والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات

Notes

1←

«تفسير الطبري».

2←

«تفسير ابن كثير».

3←

المصدر السابق.

4←

رواه الترمذي، وابن ماجة.

5←

رواه الطبراني في «الأوسط»، عن واثلة كما في «صحيح الجامع»، رقم: (1905).

6←

كتاب من الشروح المشهورة لصحيح البخاري، مؤلفه بدرالدين العيني الحنفي المتوفى سنة 855 هـ.

7←

أخرجه ابن أبي الدنيا، وانظر: «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب الحنبلي، وهو الإمام الحافظ العلامة زين الدين عبد الرحمن البغدادي الدمشقي الحنبلي، أبو الفرج، الشهير بابن رجب (736هـ - 795هـ)، كان رفيق الشيخ الحافظ زين الدين العراقي، وهو شيخ ابن حجر العسقلاني، ولازم مجالس الإمام ابن قيم الجوزية إلى أن مات ابن القيم رحمه الله. قال فيه ابن حجر العسقلاني في «إنباء الغمر»: ومهر في فنون الحديث أسماءً، ورجالاً، وعللًا، وطرقًا، واطلاعًا على معانيه. وقال ابن العماد الحنبلي: كانت مجالس تذكيره للقلوب صادعة، وللناس عامة مباركة نافعة، اجتمعت الفرق عليه، ومالت القلوب بالمحبة إليه، وله مصنفات مفيدة، ومؤلفات عديدة.

من مؤلفاته: كتاب «جامع العلوم والحِكَم»، وكتاب «لطائف المعارف»، وكتاب «فضل علم السلف على الخلف»، وغيرها الكثير، رحمه الله تعالى.

8←

رواه مسلم.

9←

رواه البخاري.

10←
«تفسير ابن كثير».

11←
«تفسير الطبري».

12←
«تفسير ابن كثير».

13←
«تفسير الطبري».

14←
هو أبو العالية الرياحي، تابعي جليل، اسمه الرفيع، روي عنه: (كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما اتفقده من أمره صلاته، فإن وجدته يقيمها ويتمها أقمت وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه، وقلت: هو لغير الصلاة أضيع)، توفي سنة تسعين للهجرة رحمه الله.

15←
«تفسير ابن كثير».

16←
المصدر السابق.

17←
أخرجه ابن ماجة، كتاب الفتن، باب العقوبات، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والطبراني في «المعجم الأوسط».

18←
هو محمد بن الطبري رحمه الله تعالى، يُكنى بـأبي جعفر، 224هـ -310هـ، وكانت ولادته بآمُل عاصمة إقليم طبرستان، قال الخطيب البغدادي: (استوطن الطبري بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته، ترك لنا الطبري ثروة علمية تدل على غزارة علمه، منها: «جامع البيان في تأويل القرآن»، المعروف بـ «تفسير الطبري». وقال عنه ابن كثير: (كان أحد أئمة الإسلام علمًا وعملاً بكتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ). «البداية والنهاية»، وقال الإمام الذهبي: (الإمام الجليل، المفسر أبو جعفر، صاحب التصانيف الباهرة، من كبار أئمة الإسلام المعتمدين). «ميزان الاعتدال».

19←
«تفسير الطبري».

20←

هو طلق بن حبيب العنزي، بصري زاهد من العلماء العاملين، وعن أيوب السختياني: (ما رأيت أحدًا أعبد من طلق بن حبيب). مات قبل المئة.

21←

الإمام القدوة العابد التابعي الجليل أبو يزيد الثوري الكوفي، ويروى عن عبدالله بن مسعود أنه قال له: (يا أبا يزيد لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، وما رأيتك الا ذكرت المخبتين)، توفي الربيع سنة خمس وستين للهجرة. «سير أعلام النبلاء»، للحافظ الذهبي، عن علقمة بن مرثد: (انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين، منهم الربيع بن خثيم). «صفة الصفوة»، للإمام ابن الجوزي.

22←

«تفسير البغوي».

23←

«تفسير الطبري».

24←

هو قتادة بن دعامة السدوسي، تابعي جليل، قدوة المفسرين والمحدثين، توفي سنة 118 للهجرة. «سير أعلام النبلاء»، روي عنه أنه كان يختم القرآن في كل سبع ليال مرة، فإذا جاء العشر ختم في كل ليلة مرة. «صفة الصفوة».

25←

«جامع العلوم والحكم».

26←

أخرجه أبو داود.

27←

«عمدة التفسير»، 1/ 110، وصحح العلامة أحمد شاكر إسناده.

28←

رواه النسائي.

29←

الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله (773 - 852هـ)، هو شيخ الإسلام، علم الأعلام، أمير المؤمنين في الحديث، حافظ العصر: شهاب الدين أبو الفضل، الشافعي المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، المعروف بابن حجر العسقلاني؛ لأن أجداده من عسقلان، زادت مؤلفاته على مئة وخمسين مصنفًا، ومن أشهرها: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، و«تهذيب التهذيب»، و«تقريب التهذيب»، و«لسان الميزان»، و«الإصابة في تمييز الصحابة»، و«الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة»، و«نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر وشرحها».

30←
«فتح الباري شرح صحيح البخاري»، الجزء الثالث عشر، كتاب الرقاق.

31←
«تفسير الطبري».

32←
رواه مسلم.

33←
أخرجه أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»، و«الكبرى»، وابن ماجة، والحاكم، وغيرهم. وإسناده حسن.

34←
أخرجه النسائي في «الكبرى»، (9848)، وهكذا رواه الطبراني في «الكبير»، (7532)، والروياني في «مسنده»، (1268)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة»، (124) من طريق محمد بن حمير به. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (6464).

35←
«زاد المعاد»، لابن قيم الجوزية، 1/ 294.

36←
رواه أبو داود واللفظ له، والترمذي، وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي.

37←
رواه أبو داود، والترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب.

38←
رواه البخاري.

39←
رواه الترمذي. وقال الألباني: صحيح.

40←
«تفسير الطبري».

41←
رواه أبو داود، وغيره.

42←

«صحيح الترغيب والترهيب».

43←

«تفسير ابن كثير».

44←

«تفسير الطبري».

45←

المصدر السابق.

46←

صحيح الترمذي، وأخرجه أحمد، وابن ماجة.

47←

رواه أهل السنن.

48←

رواه أحمد في «المسند»، والحاكم في «المستدرك»، وغيرهما، وصححه الألباني.

49←

متفق عليه.

50←

«جامع العلوم والحكم»، لابن رجب الحنبلي.

51←

رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيحٌ.

52←

«جامع العلوم والحكم».

53←

«جامع العلوم والحكم».

54←

رواه الترمذي، والحاكم، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع».

55←

هو الحسن بن أبي الحسن البصري، أحد الأئمة الأعلام، كنيته: أبو سعيد. انظر: «التاريخ الكبير»، للبخاري، ولد في خلافة عمر رضي الله عنه، وحنكه عمر بيده، وكانت أمه تخدم أم سلمة رضي الله عنها. انظر: «صفة الصفوة». قال علقمة بن مرثد: انتهى الزهد إلى ثمانيةٍ مِن التابعين، فمنهم الحسن بن أبي الحسن، فما رأينا أحدًا من الناس كان أطول حزنًا منه، ما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة. «حلية الأولياء»، لأبي نعيم الأصفهاني. تُوفِّي سنة عشر ومئة، وهو ابن تسعٍ وثمانين سنة. «الطبقات الكبرى»، لابن سعد. كانت جنازتُه مشهودةً، صلوا عليه عقيبَ الجمعة بالبصرة، فشيَّعه الخلق، وازدَحموا عليه، حتى إن صلاة العصر لم تُقَمْ في الجامع. «سير أعلام النبلاء»، للذهبي.

56←

«جامع العلوم والحكم»، لابن رجب الحنبلي.

57←

«تفسير ابن كثير».

58←

«فتح القدير»، 1/ 368.

59←

رواه أحمد.

60←

أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، (97 - 161هـ)، فقيه كوفي، أحد أعلام الزهد، وإمام من أئمة الحديث النبوي.

61←

«جامع العلوم والحكم».

62←

رواه البخاري.

63←

سنن أبي داود، والترمذي.

64←

رواه أبو داود.

65←

«مجموع الفتاوى»، 17/ 38.

66←

رواه الإمام مالك، في «الموطأ»، 5/ 1443.

67←

رواه الطبراني في «معجمه الكبير»، وقال الهيثمي: إسناده حسن.

68←

رواه الشيخان.

69←

رواه ابن أبي الدنيا، في «قضاء الحوائج»، وحسَّن الألباني إسناده في «السلسلة الصحيحة».

70←

رواه البخاري.

71←

رواه أحمد.

72←

«جامع العلوم والحكم»، لابن رجب الحنبلي، ص 812 - 813.

73←

«الفوائد»، لابن القيم، ص 86.

74←

أخرجه أبو داود مفرقًا، والترمذي، والنسائي في «الكبرى»، وابن ماجة، واللفظ له، وأحمد باختلاف يسير.

75←

رواه البخاري.

76←

المصدر السابق.

77←

رواه مسلم.

78←

رواه البخاري ومسلم.

79←
رواه مسلم.

80←
رواه مسلم.

81←
متفق عليه.

82←
متفق عليه.

83←
رواه مسلم.

84←
رواه البخاري.

85←
رواه مالك.